

التراث العربي، لماذا نحققه، وكيف؟

للدكتور أحمد حسين
"عضو شرف في المجمع"

لاحظنا في العدد السابق من مجلتنا الفتية أن أكثر من ثلث صفحاته هي تعليقات على مقالات سابقة، أو ردوداً وتعقيبات. وهذه، في تقديري، ظاهرة صحية، تنبئ بأن الأفكار التي تطرحها مجلتنا أخذت تتجاذب وتتجاوب، وذلك أول الطريق إلى الابداع، ولا سيما إذا رافقه التحلي بالموضوعية والروح العلمية؛ وعلامة ذلك نزاهة الناقد، فلا يتهجم ولا يتقحم، وسجاجة الكاتب، فلا يحتد ولا يتبرم.

جميل أن نكتب ونحن نعرف أن ثمة من يزن كلماتنا بميزان العلم والعقل، يقوم المسار، ويقيل العثار. وجميل أن تمتد بين الكاتب والناقد حبال ودّ وتفاهم، فإن أصاب أي منهما، لقي من الآخر لساناً يشكره، وإن أخطأ لقي يداً حانية تردّه إلى صواب. وجلّ من لا يخطئ. وما أقبح المكابرة في الخطأ، والمداورة في تبريره.

وقد لاحظنا ان التعليقات والردود تتصل بتحقيق التراث العربي أو دراسته. وهذه أيضاً ظاهرة صحية تنبئ بتزايد الاهتمام بتراثنا، لولا أنها نشأت عن نزول بعض الكتاب إلى غير ميادينهم، كأن يتصدى لغوي إلى التعليق على كتاب علمي، بالمقاييس اللغوية، أو يعقب معجمي على دراسة فلسفية، بذهنية معجمية. فليتنا نحترم التخصص، ونترك الخبز للخباز، وفوق كل ذي

علم عليم . ان التراث العربي المخطوط ضخم متنوع ، ولتحقيقه أساليب تختلف باختلاف أنواعه ، وباختلاف الأهداف التي من أجلها نحققه . وفي هذه السطور محاولة لعرض المقومات الرئيسية لتحقيق التراث العلمي ، على وجه التخصيص .

وغني عن البيان ان مجمل التراث الذي نتكلم عنه بضعة ملايين من المخطوطات ، مبعثرة في الشرق والغرب ، بعضها في مكتبات معروفة مفهرسة ، وبعضها في مكتبات خاصة تتكشف بين حين وحين . وأكثر هذه المخطوطات في الشؤون الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية . ومنها بضعة آلاف في العلوم ، ونعني بها هنا الطب والصيدلة ، والفلك والرياضيات ، والفيزياء والكيمياء ، والجغرافيا والإنشاءات ، والفلاحة ، والتعدين ، . . . ، ويلحق بهذه كتب في التنجيم ، والسيما ، والطلسمات ، والسحر . ولكل من هذه المخطوطات نصيب من الأهمية ، ونصيب من الاهتمام . حتى تلك التي تبدو ترهات وأباطيل ، كالسيما والطلسمات ، نهتم بها لما قد تتكشف عنه من حقائق جانبية .

ان كثيراً من تراثنا الفكري قد قضى عليه التعصب . وما سلم منه أكلت بعضه الأرضة ، وأضاع بعضه مرُّ الزمان . ومنه ما سطا عليه وانتحلته رواد النهضة الأوروبية . ولذا فكل ما بقي لنا هو هام في نظرنا ومهم . بل ان اهتمامنا به يتجاوز المخطوطات العربية الى أخرى لاتينية وفارسية وتركية ، كتبت في أواخر العهود الإسلامية ، منقولة أو منتحلة من الفكر العربي الاسلامي ، أو بتأثير أو إيجاء منه . لقد نشأ هذا الفكر ، ونما ، وبلغ أوجه ، في عنفوان يقظة التاريخ ، وتحت سمعه وبصره ؛ ولكن بالرغم عن ذلك ضاع منه ما يجعل المحقق يشعر أحياناً أنه كمن يقوم بترميم صرح كبير ، اعتماداً على حطام مبعثر هنا وهناك . ان لكل ما بقي من تراثنا العلمي قيمة في عملية ترميم الفكر العلمي الاسلامي . ولكن من بضعة الآلاف التي بقيت لنا من هذا الفكر ، لم

يحقق تحقيقاً علمياً سوى القليل . والتحقيق العلمي لأي مخطوط - علمياً كان أو أدبياً، يقتضي وضعه بنص موثق خالٍ من الأخطاء في موضوعه، مدعّم بما يلزم من شروح .

وهنا نجد، قبل الشروع بعرض تفاصيل التحقيق العلمي، ان لا بد من الاجابة على سؤال يطرحه، على استحياء، أكثر المتدئين بالاهتمام بهذا التحقيق . والسؤال هو: لِمَ تكون هناك أخطاء في كتاب عظيم كتبه عالم عظيم؟ والجواب عن ذلك ببساطة ان الكتاب مخطوط، أي أنه بخط ناسخ، ينقل عن ناسخ سابق؛ أو أنه بخط تلميذ أملى عليه استاذه العالم العظيم . والنُسخ يتفاوتون من حيث الأمانة في النقل، والدقة في رسم الحروف والتنقيط، ومخطوطهم تتفاوت وضوحاً؛ والناسخ قد يسهو أو تكلُّ يده، فتسقط منه عبارات، وتضطرب عبارات، وقد يلحظ خطأ في نص كتبه فيحاول تصحيحه بشرح من عنده . ويبدو أن أكثر النُسخ الذين ينسخون المخطوطات العلمية المتخصصة لا يفهمون ما يكتبون، ولذا فهم يصورون ما تراءى لهم؛ فإن كان ما يكتبونه مسألة فيها رموز حرفية، أو أشكال هندسية، فقد تستوي في نظرهم هذه الرموز فتختلط، وقد يرسمون الشكل على نحو بعيد عن الأصل، أو قد ينسونه، أو يضعونه في موضع بعيد عن النص الذي يرافقه . ثم ان الناسخ قد ينسب كتاباً الى غير مؤلفه، عن عمد أو جهل، وقد يسمي كتاباً بغير الاسم الذي اختاره المؤلف . . .

صفوة القول ان الناسخ قد يرتكب من الأخطاء ما ذكر وما لم يذكر، والأخطاء تتزايد كلما نقل ناسخ عن ناسخ . ثم ان الرطوبة أو الأرضة قد تصيب المخطوط فتتلف منه أجزاء؛ وتداول الأيدي للمخطوطات قد يفضي الى اختلاطها . وعلى المحقق أن يخرج من هذا كله بنص محرر من كل الأخطاء، موثق بقدر الامكان، مشفوع بما يلزم من شرح تفضي اليه الأناة في الاستقصاء

والتمحيص . واعتماده الأول على مقارنة النسخ المختلفة للكتاب الواحد، ورائده الأول أن كل خطأ يتبدى له إنما هو من الناسخ ، والمؤلف منه براء، إلا إذا ثبت له غير ذلك . وفي هذا تستوي كل الكتب التي تحقق، ولكن ثمة اختلافات جوهرية في التفاصيل : ففي تحقيق كتاب ديني أو لغوي أو تاريخي ، فإن الهدف تقديم نصوص يفيد منها القارئ العربي ، فيزداد علماً بالدين أو اللغة أو التاريخ . وهنا يعتبر المحقق أن المؤلف مصيب مبدع ؛ فإن لقي اختلافاً في النص بين نسختين اختار ما يراه أفضلهما ؛ وإن بقي ثمة شبهة حول لفظ، فزع إلى القاموس ، بحثاً عن لفظ أدق أو أصح ، متهماً الناسخ بالتصحيف أو التحريف . وتحقيق هذا النوع من الكتب توافر عليه، في مصر والعراق وسوريا وبخاصة ، أشخاص معروفون ، ثمسوا به وأتقنوه ، وكتبوا لنا كثيراً عن طرائقه .

ولا ينطبق هذا بحذافيره على تحقيق الكتاب العلمي ، أعني الطبي أو الرياضي أو الفلكي أو ما شابه ذلك . ذلك أن الكتب الدينية واللغوية والتاريخية وأمثالها، ما تزال قيمتها ذاتية : ندرسها لنزداد بها معرفة بأمر الدين واللغة والتاريخ ، . . . في حين أن الكتب العلمية قيمتها تاريخية ، لا نزداد بها معرفة بالطب أو الرياضيات أو الفلك ؛ ولكن نتعرف بها على هذه العلوم كيف كانت في مرحلة سابقة تجاوزناها .

إن علوم اليوم غير علوم الأمس : بالأمس كان الطب يعتمد على اللمس ، وهو اليوم يعتمد على المكروسكوب الإلكتروني ، والكشف بالأشعة ، وعلى التكنولوجيا المتقدمة التي لا تعجز عن زراعة القلوب والأعضاء . وبالأمس كان علم الفلك يعتمد على الأسطرلاب والمزولة ، واليوم لدينا المرصد والمراكب الفضائية ، وبالأمس كان تصور الفلكي للكون مبنياً على نظام بطليموس الذي صور الشمس والكواكب والقمر تدور حول الأرض ، واليوم يبني تصورنا للمجموعة الشمسية على اعتبار أن الأرض كوكب يدور مع الكواكب الأخرى

حول الشمس. وهذا هو النظام الذي وضعه كوبرنيكوس البولوني، بعد ان مهد له ابن الشاطر الدمشقي. وبالأمس تقدمت العلوم الرياضية على يد رياضي الاسلام وفلاسفته، حتى قرعت أبواب حساب التكامل، واليوم صار حساب التكامل، وتطبيقاته، يدرس في مرحلة متقدمة من الدراسة الثانوية.

علوم الأمس غير علوم اليوم. فنحن لا ندرسها متعلمين، وانما مقيمين. وهذا لا يعني أن نتهاون في أمانة النقل، بل يعني ان نكون أشد حرصاً عليها، كيما نعطي كل ذي حق حقه، فلا ينال المؤلف من الفضل أكثر مما يستحق، ولا يصيب الناسخ من اللوم أكثر مما يستحق. من هذا المنطلق نحقق النص العلمي، ونحن نعرف انه وضع في الأصل لأصحاب المهن، من حساب أو موقنين أو صيادلة أو أطباء؛ فحتى لو فرضنا ان المؤلف على درجة عالية من المعرفة اللغوية، يبقى انه مضطر الى استعمال ألفاظ درجت على ألسنة الناس؛ ومن هذه الألفاظ ما لا تذكره القواميس، ومنها ألفاظ محلية تستعمل في قطر دون قطر، ومنها ما قد يعني في بلد ما لا يعنيه في بلد آخر. فاذا جابه المحقق لفظ من هذا القبيل، ولم يجد له سنداً قاموسياً، فلا يستطيع ان يفترض وجود تصحيف أو تحريف، دون مبرر قوي. وقدياً قال البيروني ان الكلام الفصيح لا مكان له في الكتب العلمية. حتى الألفاظ القاموسية قد تستعمل في كتب العلم بمعانٍ اصطلاحية لا نجد لها ذكراً في القواميس.

أضف الى ذلك ان الكتب العلمية لا تلتزم دائماً بالقواعد اللغوية الصارمة، وبخاصة مع الأعداد. وفي بدء عملي في التحقيق، كنت، كغيري، أراعي أمانة النقل، فأترك الخطأ النحوي بحاله، إلا إذا كان ينطوي على تغيير في المعنى، وكنت أيضاً أترك الهمزة مخففة، والكلام متصلأ. ثم بتزايد الممارسة، وبمقارنة النسخ الكثيرة للنص الواحد، وصلت الى القناعة بأن اكثر الأخطاء الصرفية والنحوية هي من صنع النساخ؛ فأيقنت بأن المحافظة على هذه

الأخطاء إنما هي محافظة على أغلاط النساخ، لا المؤلفين؛ فصرت أكثر جرأة على تصحيح الأخطاء، مع أقل تغيير في الألفاظ. إلا أننا نلاحظ أشياء في عبارات الرياضيين قد تصدم اللغوي، مثل «هذا الاثنين» عند الحديث عن كسر مخرجه ٢، أو «ذلك السبعة». وقد ينسب المؤلف الى الاثنين، فيقول اثنيين. ان ما في ذهنه ان ٢ عدد، مثله كمثل ٧، ٢٠، ومليون. ومن هذا المنطلق يعامله، معتبراً ان له، كما لأسماء الاعلام، اسماً ثابتاً. في مثل هذا الموقف لا ارى أن يقدم المحقق على أي تغيير لغوي. الا ترى اننا نقول بلا حرج: البحرين قُطر عربي شقيق. هنا لم تعد «البحرين» تعني «بحرين»، وانما هو تعني قطراً واحداً معنياً بذاته، مثلما أن «أبو بكر» تعني شخصاً واحداً معروفاً بهذا الاسم، ولا تشير، من قريب ولا من بعيد، الى تعريفه بدلالة ابن بكر. اللغة وعاء الفكر، فإن اتسع الفكر فلا بد للوعاء أن يتسع.

خلاصة القول ان المقاييس اللغوية لا تنطبق دائماً على المخطوطات العلمية، لا من حيث القواعد الصرفية والنحوية، ولا من حيث المعاني. فقواعد اللغة تضعها في قوالب محددة ضيقة، والفكر في تطوره يجنح الى توسيع هذه القوالب.

ثم ان تحقيق المخطوطات العلمية يختلف عن تحقيق النصوص غير العلمية، من ناحية أخرى مرجعها ان علوم الأمس غير علوم اليوم. فقارئ الكتاب العلمي القديم لا يأنس الى لغته، رغم أنه عربي يتقن اللغة العربية. ولذا فإن على المحقق أن يجلو للقارئ خلاصة ما في الكتاب، وموقعه بالنسبة الى ما سبقه من كتب وما لحقه. أما كيف يتم ذلك فعلى الوجه التالي:

١ - قام ويقوم زملاء في روسيا، من المهتمين بتاريخ العلوم الاسلامية، بنشر بعض الكتب العربية محققة تحقيقاً علمياً. فصوروا النص تصويراً، بخط الناسخ، وأسبقوه بشرح وافٍ، بالروسية، بينوا فيه للقارئ الذي لا يعرف العربية صفوة المحتوى، ومكانته في سلم التطور العلمي. وبالمثل قام اميركي بنشر مخطوطين في الحساب، الا انه جعل الشرح بالانكليزية، وجعل مع النص المصور المخطوط ترجمة انكليزية، تكاد تكون منفرة، من شدة تقيده بالحرفية حيناً، ومن جهله بالعربية حيناً آخر. كل هؤلاء كتبوا لغير القارئ العربي.

٢ - في باريس وبلاد غربية أخرى زملاء عرب كرام يقومون بتحقيق كتب علمية، فينثرون النص محققاً، ويسبقونه بدراسة، بالفرنسية او الانكليزية، يشرحون بها محتواه، ويبينون مكانته في سلم التطور، وكأنهم هم أيضاً يكتبون لغير القارئ العربي.

وفي كلا الحالين نجد المحقق، في سبيل تبرير اختياره للمخطوط الذي يحققه، يمنح الى إعطائه أهمية أكثر مما يستحق. شأنهم في ذلك شأن المستشرقين القدامى: قام هؤلاء بجهد مشكور في دراسة الكتب العربية العلمية المتوافرة في مكتبات باريس وليدن وبرلين، فدرسوها فرادى، وصوروا كلا منها كما لو كانت أول وآخر ما أنتجه الفكر العربي الاسلامي.

٣ - في تقديري ان التحقيق الأكثر فائدة، للقارئ العربي بخاصة، هو الذي يعطي النص مطبوعاً، محرراً من الأخطاء، ويسبقه بمقدمة تبين مكانة الكاتب بين أقرانه، ومكانة الكتاب بين أمثاله، مع سرد لمزايا الكتاب وكل جديد فيه؛ ثم يتبعه بشرح للعبارات والنصوص الغامضة، وكشف بالمصطلحات الواردة في النص، وينهي ذلك كله بإيجاز بلغة أجنبية، يبين

محتوى الكتاب ومميزاته، للمهتمين من المستشرقين، فإن هم أرادوا مزيداً من الاطلاع، فليقوموا بترجمة الكتاب، كله أو بعضه. والمقدمة والشرح يقتضيان دراسة مستحسنة متأنية. حققت مرة مخطوطاً رياضياً، فحررت النص من الأخطاء وطبعته، وأهديته الى زميل رياضى لامع، وطلبت منه ان يكتب مراجعة للكتاب. ولكن، بعد قراءة متأنية، اعتذر زميلي لعدم كتابة المراجعة، لأنه وجد ان اسلوب النص القديم يحتاج حتى يفهم الى تركيز كبير، واطلاع سابق على المعاني الدقيقة للمصطلحات التي تبدو أول الأمر مألوفة، لمثل هذا نلح على كتابة مقدمة وشروح لكل كتاب علمي يحقق. ولهذا نقول: كما ان الكتاب اللغوي لا يكتمل تحقيقه الا على يدي لغوي، فكذلك الكتاب الفلكي لا ينبغي ان يحققه الا عالم بالفلك، والكتاب الطبي لا ينبغي ان يحققه الا عارف بمعنى ما يحقق، وتاريخه؛ ومثل هذا يقال عن كل كتاب علمي آخر.



ويبدو أن في الناس من ضاقوا ذرعاً بتحقيق الكتب العلمية، ولا سيما أن كثيراً من الناس حولنا إما جاهل بترائنا العلمي جهلته بالعلم نفسه، وإما مدعٍ يتظاهر بالمعرفة، فينقل ما يقرأ أو يسمع، نقلاً ببقاويها، عن مستشرقين تجاوزهم العلم في تطوره المستمر. وقد يجنح الى المباهاة، فيصور الأمر، وكأن العرب المسلمين وصلوا الى القمر على ظهر جمل. وفي مرحلة الأحباط الحاضرة، التي ننف فيها موقف العاجز عن حماية نفسه، حتى من نفسه، تبدو هذه الادعاءات هزأة، كغضبة مضرية، هتكت حجاب الشمس، بسيف من خشب، وهذا ما يجعل العمل في تحقيق تراثنا مدعاة لتساؤلات.

من هذه التساؤلات قول القائل : أليس البحث في التراث انصرافاً عن الحاضر الى الماضي؟ أليس أولى منه النظر في الحاضر والمستقبل ، ودراسة علوم اليوم من أجل المساهمة في علوم الغد؟

والجواب بلى : إن الحاضر والمستقبل أولى بالاهتمام ؛ ودراسة علوم اليوم ، والمساهمة في صنع علوم الغد ، مطامح لا يجوز ، ولا يمكن أن تعوقها دراسة الماضي . بل ان دراسة الماضي إنما هي من أجل الحاضر والمستقبل . اننا ندرس الماضي كما يدرس الطبيب ماضي المريض الصحي ، من أجل تشخيص الداء وتعيين الدواء . الحاضر والمستقبل أولى وأهم .

ولكن الأولى والأهم ليس هو الأوحده ، والبحث في التراث ، كالتنقيب عن الآثار ، له أهميته ، وله رجالات ذوو مواهب لا تتوافر لدى كل انسان . واذا كان يليق أن نقول للفنان : أدر ظهرك الى فنك ، أو أن نقول للشاعر : أختق مشاعرك ، فإنه يمكن ان نقول لمحِب التاريخ أن يكرهه ، أو للباحث في التراث ان يكفّ عن بحثه .

على أن للبحث في التراث العلمي العربي بخاصة أهمية فريدة ، ومهمة فريدة ، قلّ أن تتوافر في غيره من البحوث . أما أهميته ففي أنه ، من بين ضروب تراثنا الثقافي المتعددة ، يبين ما أعطاه الفكر العربي الاسلامي للإنسانية جمعاء : إن تراثنا الديني لنا وحدنا ، ولنا أيضاً وحدنا تراثنا اللغوي والأدبي ؛ وأما التراث العلمي فللناس كافة ، للناس ولنا في كل العصور والأجيال . انه مساهمتنا في بناء صرح الفكر الانساني . وفي عهد جهلت فيه الانسانية ، أو تجاهلت ، مقدار دينها للفكر العربي الاسلامي ، يأتي البحث في تراثنا العلمي ليكشف عن هذا الدين ، بدراسة متعمقة ، وأدلة دامغة .

وأما المهمة الفريدة للبحث في هذا التراث، فهي أنه يمكننا من إقامة بنیان المعرفة العلمية، لدى أجيالنا القادمة، على خلفية من إنجازاتنا. وهذا يتمشى مع الدعوة الى كتابة تاريخنا من وجهة نظرنا. والتاريخ لم يعد سرداً للوقائع الحربية وأحداث القصور، وإنما هو تتبع لمسيرة الفكر والحضارة. وسبيل هذا التتبع إنما هي تحقيق التراث الفكري والحضاري. وهذا التراث هو الذي يبقى موضع اعتزاز وفخار، ومبعث إلهام، على مرّ العصور، مهما اختلفت المقاييس والأذواق، وإن عرض مسيرة العلم كما لو كان قاصراً على الانجازات الغربية لا يخلق حافزاً للأجيال الصاعدة، ولا يقيم في أذهانهم مثلاً وقيماً، بقدر ما يصنع في نفوسهم أن يعرفوا أن لأجدادهم انجازات واكتشافات واختراعات. بل ان قصر البحث على الانجازات الغربية عن بيئتهم قد يعقدهم ويشعرهم بالنقص، وهو بالتأكيد يعوق استقلالهم الفكري ويحول دون الأصالة والإبداع.

وليس ما أقوله دعوة الى ادعاء أجوف، أو الى التجني على التاريخ، أو مجافاة الموضوعية؛ ولكنه دعوة الى العمل على تخريج أجيال تعتز بأصولها وبيئتها، وتثق بقدراتها وإمكاناتها.

وحديث الموضوعية يسوقنا الى تحفظ لا بد من ذكره، وأتمنى لو تُراجع أساليبنا التربوية على ضوءه:

لا جدال في أن الموضوعية في كل بحث شرط ضروري للوصول الى نتائج صائبة. ومن ثم فالالتزام بالموضوعية أمر يقده كل باحث. وهي في الاسلام أمانة: الأمانة التي عرضت على السماء والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الانسان. إنها الطريق المضمون للوصول الى الحق والحقيقة.

ولكن البحث والاستكشاف شيء، والتربية وتنشئة الأجيال شيء آخر، والباحثون عندما يكتبون لأبنائهم يراعون قبل كل شيء تنمية اعتزاز الأبناء بأممتهم، وتقوية انتمائهم الى بيئتهم، وحبهم لمثلها وقيمها، وإيمانهم بقضاياها ورسالاتها. بل ان بعض المربين يصورون تاريخ الدنيا لأبنائهم، وكأنه بدأ بهم، وينتهي عندهم. الصينيون يكادون يقولون ان كل انجاز علمي أو حضاري انما تم على أيديهم. وقد بلغ الأمر بالهنود ان امتنعوا عن إيصال كتبهم الى الأجانب خشية أن ترد عليها تعليقات تزعزع ثقة الشاب الهندي برجال بلده. أما اليابانيون فيكادون يجرمون على الياباني التحدث بغير لغته. أما عن الغربيين، فلنذكر، نحن المخضرمين، اننا كنا نتعلم الانكليزية في كتاب عن بريطانيا وجاراتها يصف الأنكليز بأنهم ملائكة. ولا تزال في بعض البلاد الافريقية كتب مدرسية تصف الأنكليز بأنهم قديسون فتحوا افريقيا ليخلصوا أهلها من الرق.

أخلص من ذلك الى القول بأن موضوعية البحث ينبغي الا تناقض تنشئة المواطنين تنشئة فيها الاعتزاز بماضيهم، والانتفاء الى أصولهم، والثقة بقدراتهم - دون تهويل يصل الى حد الادعاء الأجوف، أو الكذب الذي يضر ولا ينفع.



ومن التساؤلات التي تطرح حول تراثنا، في كل ندوة ومؤتمر، قول القائلين: أعربي هو أم إسلامي؟ قلنا إنه عربي، فانبرى لنا من يقول: لا! فمن صانعه هنود وفرس وأتراك وبربر. حتى الروس عدوا الإمام البخاري روسياً، وتباهوا بأنهم صنعوا لنا حضارتنا، وحفظوا لنا ديننا. فلما سألناهم: ماذا فعلوا لأنفسهم آنئذ؟ ولماذا لم يصنعوا لأنفسهم حضارة ترفعهم الى مستوى إنساني، سكتوا على مضض.

وقلنا إنها عروبة اللغة، لا العرق: فالهنود والفرس وغيرهم، ممن شاركوا في صنع التراث العربي، كتبوا بالعربية، قالوا: وهل تتميز الحضارات بتميز اللغات! وهل نسمي الحضارة التكنولوجية القائمة حضارة انكليزية أو أميركية أوروبية! لم تكن اللغة في يوم من الايام هوية للفكر ولا للعلم. هي اقليمية، وهما عالميان.

وقلنا: فتراثنا إذن إسلامي. فقالوا: وما ذنب غير المسلمين ممن خدموا الفكر الاسلامي في أول عهده، بنقل الفكر العالمي اليه، وخدموه في آخر عهده، بنقله الى الغرب.

تلك كلها تساؤلات طرحت، وما تزال تطرح، ويردها بين ظهرانينا زملاء يخشون على تراثنا من التجزئة. وفي تقديري أن الأمر كله زوبعة في فنان، أو مشكلة مفتعلة:

اننا نبحث في تراثنا، في فكرنا وحضارتنا. وذلك ليس لنا وحدنا، بل هو ملك الإنسانية قاطبة، فلا يضيرنا أن يبحث فيه غيرنا، ما دام البحث موضوعياً غير مغرض، فإن جافى الموضوعية، فعندها ليثبت الحادبون على التراث حذبهم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ورجالات الفكر العربي الإسلامي لا يضيرنا، بل يسعدنا، أن يمجدهم الأتراك والروس والأيرانيون والهنود، بل كل أهل الأرض. لقد ولد الفارابي في أرض تركية، ولكنه نشأ نشأة عربية اسلامية، وكتب بالعربية. فهو مسلم عربي اللسان، يخلصنا بقدر ما يخلص الأتراك. ولقد ولد الخوارزمي في أرض هي اليوم ضمن حدود الاتحاد السوفييتي، ولكنه نشأ نشأة إسلامية، وثقف ثقافة عربية، وبالعربية كتب من قبل ان تكون العربية لغة علم؛ عاش ومات مسلماً عربياً، ولم يعرف لغير ديار الإسلام أي انتفاء. فإن تقسمت اليوم ديار الإسلام، وتباينت انتفاءاتها، فقد كانت في العصور

الإسلامية الزاهية، على اختلافها جغرافياً، متحدة الثقافة والانتها، إسلامية العقيدة، عربية اللسان.

اننا نعتز بكل تراثنا، ونراه عربياً إسلامياً، من رجالته من هم من غير العرب ومن غير المسلمين؛ فمن شاء أن يعتز به، أو بهم، لغير العربية أو الإسلام، فليفعل؛ وبالمثل، نعتز نحن، العرب المسلمين، بكل من أنجبته الحضارة الإسلامية، أو تركت بصمات ظاهرة على إنتاجه، كائنة ما كانت لغته وعقيدته.

لو كان التراث قطعة لحم يأكلها الأكلون، أو أرضاً ينتهبونها، لخشينا عليه من النفاذ أو الضياع. إنه تراثنا، وسيبقى تراثنا، ولو ادّعت شعوب الأرض، لا يضيرنا أن يبحث فيه غير العرب، ولا يضيرنا أن يعتز به غير المسلمين. ثم سواء أوصفناه، أم لم نصفه، بالإسلامي أو العربي، فذلك لم يمنع، ولن يمنع هؤلاء وهؤلاء من ادّعاء ما يدعون. أولى أن تتضافر جهودنا وجهودهم لتحقيق التراث وتقييمه. ومن قديم ادّعى ابن العبري أن العرب المسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية. ثم في مطلع هذا القرن دحض مؤرخ إنكليزي هذا الزعم إذ بين أن المكتبة أحرقها الغوغاء يوم قتلوا القيمة عليها شر قتلة - هيباشيا الرياضية اللامعة. فقام من قال له: ولماذا تدفع التهمة عن العرب المسلمين! ليدفعوها هم إن شاءوا أو استطاعوا.